

تنوع الخدم وترتيبها

"لنواظب نحن على الصلاة وخدمة الكلمة"

لا تخلو حياة جماعية، مهما كانت روابط المحبة فيها قوية ومهما شملها الحماس، من ظهور بعض المشاكل أو الخلل، فكيف تُصلح آنذاك، وخاصة عندما يكون ذلك في بيئتنا الكنسية؟ كانت جماعة المؤمنين آنذاك متحدة بقوة وتجتمع "بقلب واحد ونفس واحدة". وكان الجميع يعملون ويجلبون كل ما لهم ويضعونه أمام أقدام الرسل ليوزع على كل إنسان بمقدار حاجته. وتبقى هذه الصورة مثالا للأجيال اللاحقة ونموذجاً لأفضل حياة جماعية تغطيها نعمة الروح وتشدها المحبة الخالصة. ومع ذلك، كما يذكر لوقا في سفر أعمال الرسل اليوم، لما تكاثر عدد المؤمنين دبّ شيء من الفوضى في توزيع الخيرات وأهمّل البعض، لأسباب تبدو عرقية بين اليهود العبرانيين وغير العبرانيين. وبدأ هؤلاء يتدمرون عند الرسل على هذا الإهمال لأراملهم، إذ يبدو أنهم لم يكن يستلمن ما يجب من المعونات! فماذا وجب أن يفعل الرسل الآن؟ هذه المسألة مهمة جداً، لأنها من أولى الأحداث التي توضح كيف كان الرسل ينظّمون الكنيسة لمواجهة أي خلل في حياتها الداخلية، وهذا يكشف لنا معنى الكنيسة وصورة العلاقة بين أعضائها!

بعد صعود الرب يسوع، بدأ الرسل بقيادة السفينة وتنظيم حياة الكنيسة الفتية والجديدة في وسط العالم. وذلك بجمع طاقات كل المؤمنين فيها، ولكن أيضاً بترتيبها ضمن اللياقة الكنسية وآدابها الروحية التي بالنهاية تعبّر عن هويتها، وهذه الهوية سوف تصل بها إلى ميناء الخلاص وشطّ الأمان. وإن كان تنظيم الكنيسة "في تلك الأيام" ما زال في بداياته، إلا أنه يعطينا المبدأ واضحاً على بساطته. لذلك يحقّ بنا أن نتأمل جيداً كيف تصرف الرسل أمام هذه المسألة الجماعية، وهذا ما نسميه إكلزيولوجيا (ecclesiology - εκκλησιολογία) أي تفسير التعاليم المسيحية في واقع رباط العلاقة بين المسيحيين أنفسهم لكي يكونوا كنيسة وليس جماعة ما أو حزباً أو تجمعاً وحسب!

يبدو، على الفور، أنّ الرسل ميّزوا بين المواهب وقبلوا بتعدّدها، ووضعوا لكلّ موهبة خدمتها الخاصّة بها. عندما نقبل بتعدّد المواهب علينا أن نقبل بتعدّد الخدم وتخصّصها فوراً! فقال الرسل: "لا يحسن أن نترك نحن كلمة الله ونخدم الموائد"، وبدأوا هنا بتوزيع الخدم بحسب تخصّص المواهب. يمثّل موقع الرسل اليوم الأساقفة وحتّى الرعاة الكهنة أيضاً، أي الكليروس عامّة والقادة الروحيّون. وما يقترحه الرسل هنا على مسألة الاضطراب الداخليّ يقدّم لنا بوضوح دور كلّ مؤمن في الكنيسة وطبيعة الرباط بين الشعب والمؤمن والكليروس.

لم يحلّ الرسلُ الإشكالَ بأيديهم كونهم مسؤولين وقادة! بل دعوا "الجميع إلى اجتماع واحد" وقالوا لهم "انتخبوا أيّها الإخوة منكم سبعة رجال مشهود لهم بالفضيلة وممثلين من الروح القدس والحكمة، فنقيمهم على هذه الخدمة". وهذا يوضح مسؤوليّة الجميع في حياة الكنيسة، في توزيع دون انفصال، وفي ترابط دون تداخل أو انصهار، فلا يأخذ الواحد دور الآخر أو لا يتنحّى الواحد عن دوره احتراماً للآخر.

هل هناك تراتبيّة في المواهب والمسؤوليّات في الكنيسة؟ نعم، هناك! ولكن ما هي وماذا تعني؟ إنّ للتراتبية هدفين: الأوّل هو الحفاظ على الوحدة، وثانياً حسن توزيع الخدم وجمع المواهب في حياة الكنيسة. ولكن هذه التراتبية لا تلغي تساوي المسؤوليّة في الخدمة، كلّ في موقع موهبته الروحيّة. فالترتيب الكنسيّ يضع أولاً البشارة والصلاة، ثمّ ثانياً الخدم الاجتماعيّة. لأنّ الأولى تسهر على خدمة الروح والثانية تلبي حاجة الجسد. هذه التراتبية لا تقلل من أهميّة اعتبار شؤون الجسد لكنّها تؤكد على الأهميّة الدقيقة والخاصّة لشؤون الروح والبشارة، فهذه الأخيرة على أولويّتها إنّها الأكثر تعرّضاً لخطر النسيان والإهمال دون إنذار أو تنبيه، على عكس أمورنا اليوميّة والحياتيّة، التي إذ ما تهدّد فيها أبسط الأمور ترتفع على الفور العديد من أصوات الإنذار! "لا يحسن أن نترك نحن كلمة الله ونخدم الموائد": لا تعني هذه الكلمات احتقار شؤون الموائد وإنّما التدقيق في أهميّة شؤون الكلمة!

فما هو دور كلّ من الكليروس والمؤمنين كلّهم معاً؟ واضح هنا أنّ الرسل حدّدوا لذاتهم تخصّصاً هو: "نواظب نحن على الصلاة وخدمة الكلمة". نعم يتراأس الكليروس كلّ صلواتنا. ويشرف الكليروس على التعليم الدينيّ والبشارة الداخليّة لتثبيت الإيمان والخارجيّة لنشره وتنظيم علاقته مع العالم الخارجيّ.

ما هو واقعنا هنا؟ هل يأخذ كل واحدٍ دوره؟ أي هل يلتزم كل واحدٍ بدورٍ أولاً؟ وهل يقوم بدوره الخاصّ ثانياً؟ إنّ شؤون إدارة كلّ المؤسسات الكنسيّة هي لجميع المؤمنين. الكنيسة ليست الكهنة كما أنّ الجسم ليس الرأس دون الأعضاء! وليست هي أعضاء دون الرأس! هكذا جماعة وهكذا اكليروس يجب أن نبني معاً. هذه هي الكنيسة: تجمع الكلّ للعمل معاً وبتوزيع مرتّب للأدوار.

المطران أو الكاهن ليس "مدير الأوقاف" ولا "مدير مدرسة"... وما إلى ذلك! هذا كلّه دور المؤمنين جميعاً بحسب معرفتهم وتخصّصهم أيضاً، وهم على صلة ومعرفة بهذه الشؤون أكثر. وعلى هذا الأساس، عندما يرغب أحدنا بالكهنوت، غالباً نرسله على الفور لدراسة اللاهوت والعيش في الأديار لتعلّم الصلاة، لأنّه سيعمل، كما حدّد الرسل هنا، في خدمة الكلمة والصلاة. وهذا التخصّص والتوزيع لا يعني الحصريّة وإنّما القيادة. فعندما يقول الشماس: "إلى الربّ نطلب" لا يقول "أطلب" بل نطلب جميعاً بفمي! فهو يتقدّم الخدمة ولكنّه لا يخدمها وحده. وعندما يتراأس المؤمن إحدى المؤسسات ويديرها فهذا لا يعني أنّه يُقصي اكليروس عنها، لأنّ آية خدمة ولو كانت اجتماعيّة نحو الفقراء أو تعليميّة كالمدارس وسواها... كلّها يجب ألاّ تخلو من الصلاة والكلمة، التي يجب أن يخدمها المؤمن بإخلاص فيعطي فيها روحاً وينشر جوّ الصلاة ويذكرّ بالكلمة، وبهذا الأمر للكهنة والاكليريكي دور.

إنّ تناغم وتكامل عمل الجميع في الكنيسة واضح، ولكن ما نحتاجه هو: "الجميع" أولاً، وثانياً "الوضوح"! كلّ الخدم بالكنيسة دون استثناء للمؤمنين ما عدا خدمتين فقط يتراأس (يتراأس وليس يتخصّص بها منفرداً) اكليروس وهما "خدمة الكلمة والصلاة".

إذن من هو اكليريكيّ الذي نريده في كنيستنا؟ إنّنا نريد اكليريكيّ قادراً على "خدمة الكلمة والصلاة" أي على القيام بمسؤولياته في جسمنا الواحد جسّد الربّ يسوع، الذي جميعنا أعضاء حيّة وفاعلة فيه.

يجب أن يتسلّح اكليريكيّ بالعلوم الكافية والعالية، وتزداد هذه بمقدار ما يزداد تقديرنا لفهم ووعي المؤمنين، وتنقص كلّما كان تقديرنا لهم ضعيفاً. يجب أن يتعلّم اكليريكي اللاهوت وشؤون التعليم الدينيّ لأعلى المستويات التي تليق بشعبنا المثقّف والغيور والمؤمن. حتّى إذا ما تقدّم اكليريكي إلى خدمته المنتظرة منه يستطيع أن يبشّر فعلاً ويعلن الكلمة بمعرفة جذّابة وفاعلة في النفوس، فيغذّي المؤمنين من معين الإرث الروحيّ الغنيّ جدّاً لكنيستنا، فهم يخدمون في وسط العالم

ويحملون أعباء الكنيسة الإدارية وهم بأشد الحاجة إلى ندى الروح وسلام وعذوبة الكلمة، ولكن الكلمة الحية!

يجب أن يتمتع الكلييريكي بحياة الصلاة! ليس ليعلمها للآخرين وحسب، وهذه مهمة ليست سهلة في دهر المادية اليوم، بل ليصلي لأجلهم أيضاً. إن التعليم المسيحي والبشارة ليسا شأنًا مدرسيًا بل هما قبل كل شيء عمل محبة مرفق ومسبوق بالصلاة. قبل أن يعظ الكلييريكي أو يشرح أو يعلم عليه أن يصلي لسامعيه، وبعد ذلك أيضاً.

الكنيسة الحية هي "كل" المؤمنين، الذين ينادون الكلييريكي: "أبانا"، ويقولون له ويطلبون منه أمراً واحداً: "صل لأجلنا"، ثم اترك كل الباقي علينا! الكلييريكي الحقيقي في كنيسة حية حقيقية هو "الشفيع" الذي يؤم الأسرار الإلهية ويعظ بالكلمة الحارة والحية في وسط شعب غيور يدير كل شؤونه الجماعية، أي مسيرة الكنيسة في التاريخ.

إن تشديدنا على هذا الدور للكلييريكي يريد أن يذكر، أولاً: "أي الكلييريكي نريد"، وثانياً "ماذا نريد من الكلييريكي" !

الكلييريكي هو: فم الله نحو الجماعة"، فهو المبشر بالكلمة، التي درسها حتى تخمر فيها فلا ينطق إلا منها، وحينما حلّ حلت معه وكلما فتح فمه نطقت هي فيه! الكلييريكي هو "فم الجماعة نحو الله"، فهو من يتفرغ للصلاة من أجل أولاده، إنه مخصص من قبلنا ليصير شفيعاً لنا. هذا هو الكلييريكي والكاهن الذي نريده ونريد منه: "صل لي يا أبانا!"

يساعد كل المؤمنين الكاهن والأسقف في الصلوات وفي التعليم الديني، ويتقدم هو فيها. ويساعد الكهنة المؤمنين في إدارة المؤسسات الكنسية وشؤونها الإدارية كلها، خاصة بالنواحي الروحية التي يجب ألا تنقص فيها أو تغيب عنها.

في هذا التنوع وبهذا الترتيب يحيا الجميع ككنيسة وليس فقط كتجمع ما. تنقلب الأمور ويضطرب الترتيب لسببين. السبب الأول هو الضعف الروحي والعلمي الديني عند الكليروس، أحياناً. والسبب الثاني هو تحي المؤمنين عن واجباتهم في خدمة الكنيسة وتركها كلها للكليروس، فيضطرب هذا الأخير للعمل في شؤون لا يجيدها، ويبدأ يهتم بتنمية الوقف والإدارات، وهذه تأتي على حساب خدمة الكلمة والصلاة، وهذا أحياناً أيضاً.

لنتخصص ونتكامل بصدق ومحبة. هكذا إيمان نريد وهكذا الكليروس سنعيد، إكليروس نفخر به ونرجو منه "المواظبة على خدمة الكلمة والصلاة"، فم الله إلينا وفمنا إلى الله، آمين.